



إيبارشية جنوبي الولايات المتحدة الأمريكية الرسالة الشهرية للرهبان والراهبات والمكرسين والمكرسات

سبتمبر ٢٠١٧

إلى أبنائي وبناتي،

سلام ونعمة.

لو قمنا بإنشاء فرعاً أكثر نسكاً وتقشفاً في الدير، بحيث يكون للجميع إمكانية الالتحاق الاختياري به، فهل تنضم إليه؟ ومن يقرر الانضمام سيفعل هذا بمحض إرادته الخاصة، وسوف يعيش وسط المجمع تماماً كما هو حادث الآن، ولكن الفرق سيكون في مستوى إنكار الذات. اسمحو لي أن أوضح:

قد قيل عن الرهبان القدامى أنهم: "لم يناموا لأنهم كانوا متنبهين لوجود الله... لم يتكلموا لأنهم كانوا ينصتون لكلام الله... كانوا يصومون لأنهم كانوا يتغذون بكلام الله".

لذا فإن هذا الفرع الجديد سيكون طريقاً حقيقياً لإنكار الذات. ومن ضمن الأمور الأخرى، فإن الفرد فيه سوف يجاهد ضد الكسل، ويخدم الآخرين بكل حماسة. وسوف يجاهد ضد رغبته المُلحّة في قول النكات، وضد الجدل، ولأجل التوقف عن التعبير عن الرأي، وسيكون عليه إنكار الذات بالأخص في وقت الصوم؛ والبساطة والاعتدال في وقت تناول الطعام...

"كان للقلاية أهمية قصوى في حياة هؤلاء الرهبان وفي جهادهم النسكي، لذا فقد قالوا: *اجلس في قلايتك وهي تعلمك كل شيء*... كان فكرهم أنه إن لم يجد الإنسان الله في هذا المكان الواحد، الذي هو قلايته، فلن يجده بالذهاب إلى مكانٍ آخر. لم يكن ما يعنيه البقاء في القلاية بالنسبة لهم مجرد صورة خادعة، لكنه كان يعني البقاء فيها بالعقل كما بالجسد أيضاً، فإن بقيت فيها بالجسد بينما سرح فركك في العالم الخارجي، تكون كما لو كنت قد غادرتها بالفعل"^(١).

ومع ذلك، وكما ذكرنا في مرات عديدة، فإن القيام بهذه الممارسات خارجياً فقط، سوف يكون خادع لنا في نهاية المطاف، لأن "العبرة في النهاية هي بالوصول إلى الهدف، والممارسات النسكية هي فقط الوسيلة"^(٢)، لذا سيكون الدافع في هذا الفرع الجديد هو اليقظة الداخلية، وليس فقط إتباع مجموعة من القواعد السطحية، فما هو الفرق إذن؟

عندما نتبع القواعد فقط لأنه قد قيل لنا أن نتبعها، قد نظهر مطيعين، ولكن داخلياً قد يحدث شيئاً مختلفاً للغاية... عند اللجوء إلى الصمت، الذي يظهر أنه بدافع الصبر، ولكنه في واقع الأمر مقصود به إثارة الغضب في الأخوة. يقول يوحنا كاسيان في هذا الصدد: "كأن الله لا يهتم إلا بالكلمات غير مُبالٍ بإرادتنا الخاطئة. وكأنه ينظر إلى تصرفنا الخارجي لعمل الخطية لا إلى رغبتنا ونيتنا المخطئين. أو كأننا نُسأل في يوم الدينونة فقط على ما فعله دون أن نُسأل عن نية الفعل"^(٣). نحن هنا نرى ظاهرياً فضيلة الصمت، ولكن داخلياً نية الأخ هي التعبير عن التمرد، وحمل الآخرين على الغضب. الله هو القاضي الذي يحكم في ذلك الأمر.

إنكار الذات خارجياً يقود إلى إنكار الذات داخلياً، الأمر الذي يقود إلى الاتضاع، والذي بدوره يقود إلى الله. وهي كلها درجات في سُلّم. في هذا الشهر من العام الماضي، ناقشنا الدرجة الرابعة عشرة في كتاب "السُّلّم إلى الله"، والتي كانت تشير إلى إن الراهب الذي ينكر نفسه بصدق عندما يتعلق الأمر بالطعام، على الأرجح سوف ينكر مشيئته الخاصة عندما يتعلق الأمر بالطاعة في المجمع الذي يعيش فيه.

(1) *The Sayings of the Desert Fathers: Ward, B., trans. [London: Mowbray: Cistercian Publications, 1983], Foreword.*

(2) *The Sayings of the Desert Fathers: Ward, B., trans. [London: Mowbray: Cistercian Publications, 1983], Foreword.*

(3) القمص تادرس يعقوب ملطي، *القديس يوحنا كاسيان - حياته، كتاباته، أفكاره، المناظرات (مناظرة ١٦) في الصداقة للأب يوسف*. (الأنبا رويس الأوفست - القاهرة، ١٩٩٧) ص ٣١٠.

لعل الراهب الذي يحيا حياة الزهد الحقيقي، لن يسعى إلى مكانة معينة، أو إلى أن يكون مسئولاً عن عملٍ ما في الدير، وسوف يقبل اللوم، ولن يكون لديه مشاعر ضغينة تجاه الآخرين، وسوف يعتذر عندما يخطئ، أو عندما يتم توبيخه، حتى وإن لم يكن مخطئاً، وسوف يكون متضعاً، خاضعاً للقوانين التي تقاوم ضد الذات.

قد يبدو غريباً نوعاً ما، أن نقترح فرعاً أكثر نسكاً في مكان يُفترض فيه أقصى درجات النسك، ولكن الحقيقة هي أن واقع الحياة النسكية قد تغير. لقد سعى الرهبان الذين سبقونا إلى حياة متقشفة، ولكننا الآن نسعى إلى الراحة، وننكر أنفسنا فقط إلى الحد الذي نرغب فيه. لقد اعتبر هؤلاء الرهبان الذين سبقونا الإهانة كمدح، ولكننا إذا ما تعرضنا للتوبيخ، فإن رد فعلنا يكون التمرد والمطالبة بحقوقنا. لقد تقبل أولئك الرهبان اللوم على كل شيء، ولكن إذا ما تعرضنا للتوبيخ، فإن رد فعلنا يكون الدفاع عن أنفسنا. كان هؤلاء الرهبان متضعين، طائعين، خاضعين... أما بالنسبة لنا فإذا ما أعطانا أخ/ أخت نصيحة ما، فإن رد فعلنا يكون التقليل من شأن من فعل ذلك. وإذا كانت ظروفنا المعيشية ليست كما نتوقع، فإننا نشكو، وإذا لم يكن الطعام جيداً فإننا نندمر، وإذا طُلب منا أن نعمل عندما لا نريد ذلك، فإننا نعلن عدم رغبتنا... الأمور مختلفة جداً الآن.

أبنائي وبناتي الأحباء، أسألكم: هل ترغبون في الانضمام إلى حياة النسك الحقيقي، تتسلقون معي السلّم الذي من شأنه أن يُعلّمنا أن نكون متضعين مثل خالقنا، وأن نحيا حياة تسبيح وصلاة حقيقية؟

نحن لم نُدعى لتكون مثاليين على الفور، ولكننا دُعينا إلى حياة التوبة، وهكذا دعونا ألا نقبل أن نسقط فريسة للذات.

"فإنك إذا تعبت قليلاً يعضدك الرب سريعاً"^(٤).

ليست هناك حاجة لإعطاء أمثلة هنا على هذا، كلنا نعلم أوقات استسلمنا فيها لذواتنا، ولذلك فعندما يحدث هذا دعونا نسرع إلى أن نتضع، ونعمة الله سوف تعيننا على النمو والانتصار في جهادنا النسكي.

ليكن سلام ومحبة ربنا يسوع المسيح مع جميعكم.
والمجد لله إلى الأبد. آمين.

(٤) القديس يوحنا الدرجي، السُّلّم إلى الله، الدرجة الرابعة عشرة: البطن (دير السيدة العذراء - السريان، ٢٠٠٩) ص ١٨١.